# مصادر القيم الدينية والأخلاقية عند برغسون

إبراهيم التومي علي ـ كلية التربية العجيلات ـ جامعة الزاوية

**تمهيد :**

إن السلوك الإنساني بالمعنى العام ، يتضمن معنى النشاط الذي يقوم به الكائن الحي في حركاته وتصرفاته، والتي يمكن أن نلحظها من خلال استجاباته لمنبهات خارجية أو داخلية ، ولا يمكن أن يأتي السلوك الإنساني من غير تأثيرات بيولوجية أو نفسية أو داخلية. وهذه التأثيرات المحركة للسلوك الإنساني تُوَجَهُ إلى غايات بغية بلوغها، وتسمى في علم النفس بالاستعدادات الفطرية أو الدوافع الأولية، وسميت كذلك ؛ لأنها مشتركة بين الإنسان والحيوان : مثل البحث عن الطعام، والنسل، والمحافظة عن النوع، والقيام بالدفاع عن النفس، وهكذا يكون السلوك الفطري هو جملة الاستجابات التي تثيرها مؤثرات البيئة. أما السلوك المكتسب : فهو السلوك الذي يتعلمه الإنسان في محيطه الاجتماعي، وهو متنوع بتنوع النشاطات والأدوار التي أسندت إليه داخل المجتمع، وهذه التصرفات يمكن أن توصف بأنها حسنة أو سيئة طبقا لمعياري الخير والشر، فإذا العمل أو النشاط الذي قام به يرجع بالفائدة عليه وعلى الآخرين يقال له خير، وإذا أساء إليه وإلى الآخرين، يوصف بأنه شر.

فالأحكام التي يصدرها الإنسان على هذه الأفعال هي ما يسمى بأحكام القيمة؛ أي تقييم النشاط استناداً إلى التجربة التي عاشها الإنسان في حياته، ومن هنا تأتي كلمة " الأخلاق " ؛ لتدل على العادة، والطبع، والمروءة، والفضيلة... إلخ والأفعال الإنسانية كافة. وقد عرفها " رمضان الدباغ " في كتابه " **الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق**" بقوله: " يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة ". (1)

وتُعرف الأخلاق بأنها مجموعة من قواعد النشاط والقيم التي تطبق كمعايير للسلوك الإنساني داخل المجتمع، ويبين هذا التعريف أن الأخلاق بمثابة معالم يسير عليها الإنسان في حياته الاجتماعية، فتضبط تصرفاته مع غيره، فهو علم يُوضح معنى الخير والشر، ويُوضح الأهداف والغايات للوصول إلى أغراضهم. (2)

وقد عرّف جميل صليبيا الأخلاق في معجمه الفلسفي بقوله : " إن معنى الأخلاق مأخوذة من كلمة " خُلق " المنسوب إلى " الخلق "، ويُطلق على ما كان مطابقا لقواعد السلوك في عصر من العصور.(3) وعن مفهوم الأخلاق، نشأت المذاهب الأخلاقية التي تنوعت بتنوع الاتجاهات، فقيل أخلاق المنفعة، أخلاق اللذة، الأخلاق العقلية، الأخلاق الدينية...إلخ ووصفت السلوكيات بحسب

الأيديولوجيات البشرية فقيل : أخلاق المسيحية، أخلاق الرواقية الأخلاق الاشتراكية، الأخلاق المهنية... إلخ . وعلى هذا، فالأخلاق شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وتنعت بأنها العلم الذي يدرس العادات الاجتماعية وتقاليدها، وكذلك العلم الذي يدرس القيم التي يتصرف على ضوئها الإنسان. وترى المدرسة الاجتماعية الفرنسية أن الأخلاق تقترب كثيرا من علم الاجتماع؛ بمعنى أن السلوكيات الفردية ما هي إلا سلوكيات اجتماعية بصفة عامة؛ فالفرد يتلقى قيمه وسلوكه من الأسرة والمجتمع في زمان ومكان ما، ولا تختلف دراستها عن دراسة الحوادث الاجتماعية ؛ مما جعل بعض علماء الاجتماع يذهبون (ومنهم ليفي برول) إلى اعتبار الأخلاق علماً ينتمي إلى الدراسات الاجتماعية فيقول : " إن الأخلاق هي دائما قاعدية ولأنها دائما قاعدية، لا تكون البتة نظرية حقا "(4)

في هذا البحث، سنلقي الضوء على الأخلاق المفتوحة عند برغسون ومصدر هذه الأخلاق وخصائصها. بعد كنا قد ألقينا الضوء على الأخلاق المغلقة في بحث سابق نشر بمجلة كلية الآداب جامعة الزاوية العدد العاشر .

## الأخلاق المفتوحة :

يذهب برغسون ( موضوع بحثنا هذا) إلى أن هناك ضربين من الأخلاق هما : الأخلاق المغلقة أو الأخلاق المقفلة، والأخلاق المفتوحة. الأخلاق المغلقة تلتفتُ إلى الظواهر العامة للحياة، وهي تتمثل في ذلك الضغط الذي يباشره المجتمع على أفراده، وتتم أفعال هذه الأخلاق تلقائيا وغريزيا، ولا وجود لصراع بين الأنا الفردية والأنا الاجتماعية إلا في حالات استثنائية، والأخلاق المغلقة تُعد أخلاقا غير شخصية، وهي مغلقة من أوجه ثلاثة؛ لأنها تسعى للحفاظ على العادات الاجتماعية، وتُوجِدُ تطابقا بين ما هو فردي، وما هو اجتماعي، حيث يظل العقل باستمرار سجينا داخل دائرته، وهي تصلح لمجتمع معين وليست صالحة إلى جميع المجتمعات ؛ وذلك لأن التلاحم الاجتماعي الذي هو همها الأول يرتكز على ضرورة الدفاع عن وجوده.

أما الأخلاق المفتوحة، فهي تلك التي تتجسد في شخصيات فذة وقديسين وأبطال، وهي لذلك ليست أخلاقا اجتماعية، بل إنسانية وشخصية، وهي لا تنشأ عن ضغط اجتماعي، بل استجابة لنداء شخصي، وهي غير ثابتة، بل متطورة وخلاقة أساسا، وهذا هو ما يجعلها مفتوحة تحتوي الحياة جميعها في إطار الحب، بل إنها تمنح الإحساس بالحرية وتتطابق مع مبدإ الحياة نفسه، فهي نتاج لعاطفة عميقة غير ذي موضوع شبيه بالحبور الذي يولده في نفوسنا سماع الموسيقى .

## 1 ـ منبع الأخلاق المفتوحة :

لاحظ برغسون أن هناك تطورات طرأت على القيم الإنسانية، وعزا تلك التطورات إلى ظهور شخصيات اتصفت بصفات سامية، ونفوس قوية أثرت بطريقة مباشرة على الفِئات الاجتماعية، واستطاعت أن تجذب الناس إلى المفاهيم الجديدة التي نادت بها، وفي هذا يقول " ... أما الوضع للآخر، فهو وضع النفس المتفتحة، فيا ترى لأي شيء تتفتح هذه النفس لو قلت إنها تشمل الإنسانية كلها ما ذهبت بعيداً، ولا وفيتها حقها، فإن حبها ليمتد إلى الطبيعة كلها، فينال الحيوان، ويشمل النبات، ومع ذلك فليس هذا الذي يملؤها بكاف لتحديد الوضع الذي اتخذته؛ لأنها لا تستطيع أن تستغني عنه كله، فصورتها ليست متوفقة على مضمونها ولئن أتينا على ملئها، ففي وسعنا كذلك أن نفرغها، إن المحبة لتبقى في نفس المحب ولو لم يبق على وجه الأرض حيّاً غيره " (5)

تبين هذه الفقرة البرغسونية، أن الانجذاب صورة مستقلة عن أي مضمون قد ترتبط به، ويمكن شحن هذه الصورة بأي محتوى من القيم التي نرغب فيها، فيبقى لها تأثير على المضمون الأخلاقي عن طريق ميزة الانجذاب؛ ولهذا تحدد العلاقة بين الأخلاق الحركية، وبين قوة الانجذاب على النحو الآتي :

ـ الصورة ترتبط بمضمونها ومحتواها كما ترتبط الصورة بالهيولي في المادة الجامدة أو الحية . وبعبارة أخرى، إن " الصورة " بمثابة العلة الفاعلة ؛ والمضمون هو جملة العادات والسلوكات الاجتماعية، فبواسطة العلة الفاعلة(الانجذاب ) يتغير المضمون، فيصبح سلوكا مخالفا لما كان عليه سابقا.

ـ إن الانجذاب هو المبدأ المحرك للمضمون الأخلاقي؛ أي الأخلاق المتفتحة بغض النظر عن محتوياتها، وفي هذا السياق يقول"برغسون":" فالتطلع المحض كالإلزام الصرف".(6) يريد " برغسون " أن يبين في هذا القول: إن التطلع المحض له فعالية، وقوة في تحريك القيم الأخلاقية ودفعها إلى التغير، مثل قوة الالتزام المحض في ترابط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وعلى هذا نجد" برغسون" ينعت الأخلاق الحركية بصفات أساسية، منها :

أ ـ إن الأخلاق الحركية بإمكانها أن تتحدى مستوى الأخلاق الساكنة، عندما نرغب في الاتجاه إلى المبادئ المثالية للرفع من قيمة الإنسان إلى مستوى السمو والمحبة الإنسانية الخالصة، وهذه القيم السامية والفضائل الأخلاقية، نجدها في شخصيات القديسين المسيحيين وزعماء الإصلاح والأبطال، وفي هذا يقول : " وفي رأينا أن غاية التصوف اتصال بالجهد المبدع الخالق الذي ينجلي عن الحياة ، ومن ثم اتحاد جزئي به ". (7)

ب ـ يمثل التصوف المسيحي الأخلاق الحركية؛ لأنه يتصف بصفة عالية وفضائل أخلاقية تفوق الأديان الأخرى غير المسيحية، بالرغم من اعترافه للأديان الأخرى بما لها من قوة في تحريك القيم الإنسانية، غير أن تعاليم يسوع المسيح هي التي تمثل الأخلاق الحركية، وفي هذا يقول : " إن أخلاق الإنجيل هي في جوهرها أخلاق النفس المتفتحة ". (8)

نلاحظ فوق ما تقدم، أن برغسون كان يهتم كثيرا بصورة الأخلاق أكثر من اهتمامه بمضمونها ؛ لأنه يرى في الصورة العنصر المحرك للشعور وقوة تغيره وتفتحه على الأفكار الجديدة .

## 2 ـ أسس الأخلاق الحركية :

يلعب التيار الحيوي عند " برغسون " دورا مهما في إنتاج مختلف الأنواع الحيوية، وكذلك في إنتاج الطاقة التي تبدع في الإنسان ( ألا وهي الطاقة المعرفية )، فهذا التيار قادر على إنتاج القديسين والأبطال، كما هو قادر على إنتاج المجتمعات المغلقة، غير أن الحياة تقتضي الحركة والصيرورة والتغير، ولا يمكن للحياة أن تبقى على صورة واحدة، ولهذا فإن من طبيعة التيار الحيوي أن يخلق أشكالا جديدة لبعث الحياة على التجدد؛ فهؤلاء القديسون والأبطال يمثلون النوع الجديد؛ فكل نفس من هذه النفوس ( نفوس الأبطال ) تمثل مرحلة في حياة الشعوب. ويرى صادق جلال العظم في كتابه " دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة " أن برغسون يُرجع تطور القيم الأخلاقية المتفتحة إلى نمطين من قوى الحياة :

أ ـ إن الحياة تخلق الأشخاص الذين يجسدون القيم في مجتمع من المجتمعات، وهذه الشخصيات تمثل صورة الأخلاق المتحركة؛ لأن لها قوة التطلع والانجذاب ولها القدرة على التأثير على النفوس البسيطة وعامة الناس.

ب ـ وتتميز هذه الشخصيات الممتازة بحب لا متناه يشمل جميع البشر والأشياء، وهذا بواسطة اتصالهم بالتيار الحيوي الخلاق، وبالقوة الروحية التي يتمتعون بها ينالون مرتبة القديس. (9) وهذا كله يتمثل في الوثبة الحيوية، وفي هذا يقول " برغسون " : " يبدو أن قادة الإنسانية العظام الذين قهروا حدوداً وتجاوزوا الحواجز ساروا في اتجاه الوثبة الحيوية". (10)

وتعتبر الانفعالات والعواطف الفياضة التي تنجذب نحو القيم السامية، وخاصة العواطف الغيْريَةُ مصدراً من مصادر الأخلاق، وقد بين " توماس الاكويني " أنه يوجد في الوجدان الإنساني حب حسي روحي، وهو الخير أو الأشياء الطيبة، وقد يكون الحب الروحي موضوعيا من الوجهة الأخلاقية. (11)

وذهب صادق جلال العظم " في كتابه سابق الذكر " إلى أن عواطفنا ومشاعرنا هي التي تستجيب لنداء البطل، وهي التي تجذبنا نحو القديس لنقتدي به ونحاكيه. [12] وعلى هذا، نجد وجهة نظره تتطابق مع نظرة " برغسون " الذي يرى في نداء هؤلاء الأبطال والمتصوفين إذكاءً للشعور والعواطف، وتحريكا للنفوس من أجل القيام بجليل الأعمال في الميدان الاجتماعي.

ويقول: " كذلك رُسل الأخلاق، للحياة في استماعهم رنين عاطفي كالرنين الذي يشيعه إيقاع جديد، فيدخلونا معهم في هذه الموسيقى فنعبر عنها في حركة ". [13]

إذن، مصدر الإبداع حسب نظره هو الانفعالات الباطنية الصادرة من أعماق الشعور، فهي التي تؤدي إلى تبديل الأخلاق المغلقة بالأخلاق المتفتحة الجديدة؛ فالأخلاق التي يأتي بها هؤلاء الأبطال في جميع الميادين، سواء كانت فكرية أم وجدانية أم فلسفية أم غيرها من الابتكارات العلمية، دائما يكون مصدرها الحماس الفياض والانفعال الخلاق. وفي هذا، يقول : " ولسنا نرتاب في أن الانفعال الجديد هو المنبع الذي تصدر عنه عظائم مبدعات الفن والعلم والحضارة ". [14]

من هذا السياق، نلاحظ أن النزعة الرومانسية متأصلة في أعماق الفكر البرغسوني، ويظهر هذا جليا في إعطائه الأولوية للعواطف والتجربة الباطنية النابعة من أعماق الأحاسيس الوجدانية، وهي السبيل الوحيد للقيام بجليل الأعمال في ميدان الابتكار والإبداع ، وأنه يحط من قيمة العقل في هذا الميدان، والشيء الملاحظ - أيضا - يبدو أنه متأثر بالنزعة الوجودية أكثر من تأثره بالنزعة العلمية، غير أن اتجاهه طغت عليه الصوفية المسيحية، ولا شك أن برغسون تأثر بلجنة التعاون الفكري التي كان يرأسها سنة 1919م، ونشر على إثرها مذكراته بعنوان " النشاط الروحي"، ولا ننسى أن الحياة الاجتماعية لها تأثير على المقومات الذهنية والمقومات العاطفية: كالشرف والصداقة والوطنية، وكذلك أنه تأثر ببعض النشاطات الروحية التي كانت سائدة في فرنسا آنذاك. [15]

إن تشبعه بالنزعة الصوفية المسيحية المضادة للتيارات العلمانية، جعله يتنكر لكل ما هو عقلي أو تصوري، ولعل الغرض من البحث عن منبعي الأخلاق والدين هو رغبته في إرساء دعائم أخلاقية جديدة تسودها المحبة والإخاء والتعاون والتراحم. هذه الصفات والفضائل التي توجد في النزعة الصوفية المسيحية كانت مضادة للمذاهب الأخلاقية المبنية على الأنانية المفرطة والصراع الطبقي، فـ (نيتشه ) على سبيل المثال ( الذي يمثل أخلاق الأنانية ) سعى إلى تأسيس الأخلاق على القوة والعنف من أجل الوصول إلى الرجل القوي " السوبرمان " وليس الإنسان الضعيف الذي يثقل حركية المجتمع الإنساني، وذهب إلى أن هناك أخلاقا للسادة من جهة، وأخلاقا أخرى للعبيد التي ترضى أن تعيش تحت وطأة السادة،

وقد استدل على وجود هذين النوعين من الأخلاق باستقراء عدة أنظمة اجتماعية وسياسية في مختلف شعوب العالم وتوصل في النهاية إلى أن الطابع الغالب على الأخلاق الأوربية هو أخلاق العبيد، وأن أخلاق السادة تظهر في فترات قصيرة جداً، وسرعان ما يطغى عليها التيار الرئيس الذي هو تيار الضعفاء.(16)

في حين رأى ماركس ( الذي يمثل الأخلاق المبنية على الصراع الطبقي) أن الطبقية في المجتمع أدت إلى وجود نوعين من الأخلاق : أخلاق برجوازية مسيطرة تستغل الناس في خيراتهم باسم الملكية الخاصة، وأخلاق الطبقة المضطهدة اقتصاديا وفكريا؛ بمعنى أن مصدر الأخلاق القوة والسيطرة للحفاظ على الملكية الخاصة. (17)

## 3 ـ مصدر الأخلاق الحركية ( المفتوحة ) :

إذا رجعنا إلى الأخلاق الحركية عند برغسون، نلاحظ أنه يرى أن الأخلاق لكي تتحرك وتتجدد؛ لابد أن تكون نابعة من العاطفة الدينية والإنسانية، وبواسطة القديسين والمتصوفة؛ لأنهم يمثلون القيم السامية، وفي هذا يقول : " من هذا الاتصال بالمبدإ المولد للنوع الإنساني يشعرون أنهم ( القديسين والمتصوفين ) يستقون القوة التي بها يحبون الإنسانية " . (18)

**ما يمكن استنتاجه من هذا القول إن برغسون يعتبر :**

1 ـ إن الحدس الصوفي الانفعالي هو صورة من صور الانجذاب نحو الخلق والتقدم للقيم الاجتماعية.

2 ـ ينكر أن يكون للعقل دور في الوصول إلى الإبداع والتجديد.

3 ـ إن الأخلاق الحركية تعتمد على العنصر الانفعالي، وكذلك على عنصر الحدس الصوفي الذي يصبو دائما إلى الالتحاق بالفضيلة وقيم الخير.

4 ـ إن منبع الأخلاق عند برغسون هو الدين المسيحي الذي يحتوي على معان سامية ترفع من قيمة الإنسان إلى مرتبة عالية.

وغير بعيد من هذا المعنى للقيم الأخلاقية، نجد الفيلسوف الألماني " كانط " يبني أسس الأخلاق وقيمها على الدين، وفي هذا يقول : " الدين هو الإقرار بكل الواجبات الأخلاقية على أنها أوامر إلهية " . (19) فكانط، يرى في تقوى رجل الدين شعوراً أخلاقياً تجاه الله، وهو الخوف من عقابه. ومن جهة أخرى هي محبة الله ؛ لأنه هو الذي خلقنا وأعطانا القدرة على الفهم. وهذه المحبة تؤدي بنا إلى الامتثال لأوامره، غير أنه يركز كثيرا على القوانين الأخلاقية، والتي مصدرها الوجدان أو الشعور بالخير الذي أفاضه الله على ضمائرنا بمعرفة ما يجب فعله، وما يجب تركه في سبيل تحقيق طبيعتنا المثالية. إذن، المستويات الأخلاقية تتحدد انطلاقا من

منابعها الأصلية التي هي الانفعالات الوجدانية التواقة إلى جعل البشرية أرقى الكائنات على الأرض.

## 4 ـ مستويات الأخلاق البرغسونية :

يلاحظ أن هناك ثلاثة مستويات للأخلاق لدى برغسون، هي :

المستوى الأول : عبارة عن قواعد اجتماعية يطبقها الأفراد في حياتهم اليومية على شكل عادات اجتماعية، وهذه العادات الاجتماعية هي متأصلة في نفوس الأفراد ويطبقونها بطريقة آلية من غير تبصر في كل تصرفاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ومن غير تفكير ولا تعليل. فهي تشبه الضرورة الطبيعية في ثبات قوانينها، ولا يمكن للفرد أن يخرج عنها ؛ لما تنطوي عليه من إلزام أخلاقي، وهذا ما يسميه ( برغسون ) بالضغط الاجتماعي.

## المستوى الثاني : هو الأخلاق المفتوحة :

ـ إن الأخلاق المغلقة لا تبقى دائما على نفس الخصائص المتميزة بها؛ لأن المجتمعات البشرية تتأثر بمختلف الحركات السياسية، والفكرية، والدينية، والاقتصادية، ما يؤدي بها إلى التغير والتحول نحو قيم جديدة تختلف عن القيم التي كانت سائدة، لأنها تقع تحت تأثير قوى خفية، فتدفعها إلى أن تخطو خطوات إلى الأمام ، لكن هذه الحركية لا تكون عشوائية من غير قصد؛ فهي هادفة إلى غايات، وهي تحتاج إلى العقل في تنظيم حركيتها وضبطها وتحويلها إلى أنماط من السلوكيات التعودية وبذلك تتحول هذه الأخلاق المفتوحة إلى مزيج من الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة، يسميها برغسون بـ ( الأخلاق المختلطة ). [20]

## المستوى الثالث : هو الأخلاق المختلطة :

تتشكل الأخلاق المغلقة على مستوى العقل بشكل منظم ومتسق للأنماط السلوكية؛ وذلك من أجل تقنين الحياة الاجتماعية والتحكم في صيرورتها، ومن غير تدخل العقل في الضوابط العقلية تصبح القواعد الاجتماعية الأخلاقية في فوضى من جراء تداخل الحقوق والواجبات، ومن أجل هذا لابد أن تتواجد أخلاق تتمشى والحياة الاجتماعية هي " الأخلاق المختلطة "التي تتوسط النمطين من الأخلاق : الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة ". [21]

إن كل مجتمع بإمكانه أن يتخطى المستوى الأخلاقي الذي يعيش عليه، للاستجابة إلى نداء المصلحين والزعماء والأبطال عن طريق الانجذاب إلى نداءاتهم ، فالتفرقة التي أقامها (كانط ) تختلف عن التفرقة التي أقامها ( برغسون )

في مستويات الأخلاق، فـ (كانط ) يميز بين فعلين : فعل أخلاقي يصدر عن ميل مباشر ويحمل في طياته تعاطفا وجدانيا مع الآخرين، ويستهدف هذا الفعل مصلحة تخضع إلى شروط تقتضيها الحياة الاجتماعية، وهذا النوع من الأخلاق عند ( كانط ) لا ينتمي إلى القيم السامية المطلقة، وبالتالي فهو فعل لا يتضمن معاني الفعل الأخلاقي، وفعل يصدر عن الواجب الأخلاقي بغض النظر عن المنافع التي يحملها هذا الواجب، وهذا الفعل تتوقف قيمته على المبدإ الأساسي أو القاعدة التي تجعل الفعل ذا قيمة خلقية. (22)

إن برغسون على العكس من كانط يرجع الأخلاق السامية، والتي تحتوي على قيم إنسانية إلى الانفعال الخلاق؛ لأنه هو الذي يقوم بتحريك البشرية من أجل تجاوز الأخلاق الساكنة، فلم يترك برغسون للعقل دورا يقوم به في مجال الأخلاق الحركية؛ فالعقل عنده يقوم بوظيفة أخرى ألا وهي التحليل والتفكيك.(23) وعلى هذا نجد الأخلاق البرغسونية هي أخلاق الزهاد والمتصوفة الذين يقومون بتوجيه الإرشاد والنصح إلى الناس من أجل تغيير مجتمعاتهم ودفعها إلى العلو والسمو.

ومصدرية الأخلاق عند برغسون ترجع إلى عنصرين اثنين هما : العقل الذي يقوم بعملية تنظيم القيم الأخلاقية عن طريق تثبيت قواعد أخلاقية، ليسير عليها الناس وللتمكن من معرفتها وإدراكها، وهذه ما يُسّمى بالأخلاق الوضعية. وهذا العنصر مدعم بعاطفة الانفعال التي تهب القوة لهذه القيم في استمرار تطبيقها على المستوى الاجتماعي، فعنصر الانفعال يرغب الناس في الحفاظ على علاقاتهم وتبادل المصالح والمنافع. وفي هذا يقول : " فالإلزام الحقيقي موجود من قبل، وطبيعي، أن ما سيمضيه العقل سيكتسي طابع الإلزام ". (24)

أما العنصر الثاني: فيتمثل في العاطفة المبدعة التي تحرك القيم السائدة في مجتمع من المجتمعات وتدفعها إلى التطور والتجديد، وهذه العاطفة وجدت في نفوس تتميز بالعبقرية وحب الإنسانية، فهي التي وهبت للإنسانية قيم الفضيلة والخير. وفي هذا يقول : " كذلك انبثقت نفوس ممتازة شعرت أنها تمتُّ بقربى إلى سائر النفوس ولم تقف عند حدود الجماعة ... بل ارتفعت بالحب إلى الإنسانية كافة ". (25)

## 5 ـ **التربية الخلقية عند برغسون** :

تطرق برغسون إلى موضوع التربية الخلقية في المؤسسات التعليمية، وبين أن التربية تهدف إلى ترسيخ القيم الأخلاقية من أجل الحفاظ على العلاقات بين أفراد المجتمع وضبط نفوس الأطفال وترويضها على حب الخير والصالح العام، واحترام بني جنسهم وبث روح الإنسانية فيهم. وطريقة تعليم النشئ سلوكا معينا لا

تتم إلا عن طريق العقل الذي بإمكانه إقناعهم بواسطة تحليل مفاهيم القيم ومناقشتها، غير أن طريقة الإقناع العقلي وحدها لا تكفي للوصول للأهداف المرجوة، بل لابد من تجاوز طريقة العقل إلى طريقة أخرى التي هي الوجدان الروحي، والتي تتمثل في التصوف. ويقول في هذا الصدد : " هناك طريقتان أمام المربي : الأولى طريقة الترويض بأعلى معاني هذه الكلمة، والثانية : طريقة التصوف بأبسط معاني هذه الكلمة ". (26)

وعلى خلاف من ( برغسون)، نجد ( كانط ) يعطي الأسبقية للقيم العقلية؛ لأنها ثابتة ودائمة وغير متغيرة تخلق في صاحبها احترام الواجب واحترام نفسه كإنسان، ويرفض استدرار عواطف الطفل وأحاسيسه؛ لأن ذلك يعلمه الأنانية وحب الذات. (27)

فالتربية عند كانط كلها مبنية على حرية العقل في اتخاذ القرارات، واختيار ما يؤدي به إلى احترام نفسه كإنسان، ويرفض أساليب التربية المبنية على القهر والترهيب؛ لأن ذلك سيؤدي إلى تعكير صفاء قلبه، وحتى الدين الذي يجعل الإنسان عبوسا، فهو دين زائف؛ لأن على الإنسان أن يعبد الله بقلب مبتهج وليس من قهر وقسر. (28) أما برغسون ، فيعتبر التربية الدينية أساسا للأخلاق المتفتحة، فهي تؤثر في إرادتنا وسلوكنا وتدفعنا إلى حب الخير والسعي إلى نشر المحبة. وفي هذا يقول : " ... وإن كنا بإزاء الطريقة الثانية، فنحن أمام التجربة الصوفية من حيث هي شيء مباشر، وخارج عن كل تأويل، فإن المتصوفين الحقيقيين يفتحون أنفسهم للموجة التي تجتاحهم ". (29)

يتضح لنا أن برغسون يبين أن التربية الاجتماعية تستند إلى الاستعدادات الفطرية وتحليلها ومعرفة الدوافع التي يمكن مراعاتها والعمل على توجيهها وجهة سليمة؛ غير أن هذه الاستعدادات الفطرية لا يمكن تقويمها إلا بوجود مربين يحملون قيماً دينية قادرة على زرع روح المحبة والتعاون في نفوس البشر، وهذا يكون عن طريق رجال الإصلاح والمتصوفين.

وقد نقد " جلال العظم " الأخلاق البرغسونية ونعتها بأنها مجرد تعبيرات مجازية لا معنى فيها؛ فهي مجرد أوصاف يفاضل بينها وبين القيم السائدة. (30) والانفعالات التي اعتبرها برغسون سبب الأخلاق المتحركة والعاطفة التي تؤدي إلى المحبة، وبث القيم بين بني البشر، اعتبرها " اسبينوزا " سببا في الحزن والكدر، وبالتالي هي شر، فنحن نصل إلى السعادة وقيم الفضيلة عندما نتغلب على قوة الانفعالات، وفي نظره؛ أي " اسبينوزا " الانفعالات منافية للأخلاق . (31)

## الخاتمة :

يرى برغسون أن الديمومة تبدع وتخلق أنماطاً معينة من السلوكات؛ لأنها تنتمي إلى التيار الحيوي الذي ينتج المجتمعات البشرية والحيوانية، والأخلاق المفتوحة تتجاوز حدود الجماعة، وهي ليست وليدة الضغط الاجتماعي، بل تصدر عن نزوع سام يتمثل في جاذبية القيم التي ينادي بها العباقرة والعظماء والمتصوفة والمصلحون الذين يمثلون رموز الوثبة الحيوية ودعاة المحبة والإيثار ورُسل القيم الروحية في كل زمان ومكان، وتمتاز (أي الأخلاق المفتوحة ) بأنها أخلاق ديناميكية تعلو فوق مستوى العقل، وتقوم على الانفعالات الحية التي تكمن وراء المبادئ الخلقية والنظريات الأخلاقية، وتتمثل في العاطفة المبدعة التي تحرك القيم السائدة في مجتمع من المجتمعات، وتدفعها إلى التطور والتجديد، والتي توجد في نفوس تميزت بالعبقرية وحب الإنسانية، ووهبت للإنسانية قيم الفضيلة والخير.

## الهوامش :

1 ـ رمضان الصباغ ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 1998 ، ص 192
2 ـ أحمد أمين ، الأخلاق ، دار الكتاب العربي ، من دون طبعة ، 1969 ، ص 12
3 ـ جميل صليبيا ، المعجم الفلسفي ، جـ 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1971 ، 194
4 ـ ليفي برول ، الأخلاق وعلوم الأخلاق ، نقلا عن بارودي ، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ، ترجمة محمد غلاب ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط 2 ، 1958 ، ص33
5 ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، ترجمة سامي الدروبي ، عبدالله عبد الدائم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 2 ، 1984 ، ص 45
6 ـ نفس المصدر ، ص92
7 ـ نفس المصدر، ص 236
8 ـ نفس المصدر ، ص 67
9 ـ صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، دار العودة ، بيروت ، ط3 ، ص 169
10 ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 65
11 ـ سامي النشار وآخرون ، توماس الاكويني ، الأصول الافلاطونية ، دار الكتب الجامعية ، 1970 ، ص 317
12 ـ نفس المرجع ، ص 170
13 ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 47
14 ـ نفس المصدر، ص 50
15 ـ جان فال ، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر ، ترجمة فؤاد كامل ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، مصر ، 2000 ، ص 120
16 ـ فؤاد زكريا ، أراء نقدية في مشكلة الفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1975 ، ص 367
17 ـ نفس المرجع ، ص 370
18 ـ برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 59
19 ـ كانط ، نقد العقل العملي ، ص 129 ـ 134
20 ـ صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص 126
21 ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 85
22 ـ نقلاً عن : محمد مهران رشوان ، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1998 ، ص 161
23 ـ صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص172
24 ـ ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 98
25 ـ نفس المصدر ، ص 104
26 ـ نفس المصدر ، ص 106
27 ـ عبدالرحمن بدوي ، فلسفة التربية عند كانط ، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، 1980 ، ص 154
28 ـ نفس المرجع ، ص 147
29 ـ ـ هنري برغسون ، منبعا الأخلاق والدين ، مصدر سبق ذكره ، ص 108
30 ـ صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص 148
31 ـ وول ديورانت ، قصة الفلسفة ، ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط2 ، ص 229